ذكرى قديمة

قصة قصيرة

تكتبها : فتاة الشهباء

أحياناً تستوقفنا كلمة لتعود بنا إلى الوراء، أحياناً صورة، موقف ويبدأ شريط الذكريات .. ومهما تقدمت بنا السنون وانتقلنا من مكان إلى آخر تبقى أشياء تربطنا بالماضي وتعيدنا إليه.

وفي ليلة أعاد لي صوت المطر ذكرى قديمة .. من أيام الطفولة. أشعلت تلك الذكرى في نفسي مشاعر دفينة عشتها في تلك التجربة ... في تجربة الضياع.

في غرفتي الصغيرة ، جلست أرقب حبات المطر وهي تهطل بغزارة على زجاج نافذتي .. صوتها العذب يطرق مسامعي، فيثير فيّ الشجون والذكريات.. وفي لحظة أضاء البرق السماء، فانكشف غطاء الليل، وظهرت أمامي الأشجار والبيوت، ثم عاد الظلام فأسدل ستاره. ودوّى الرعد.. يا الله صوت الرعد وضوء البرق أزكيا ذاكرتي كأنهما المفتاح الذي أدار شريط الذكريات...

ما زلت أذكر حتى الآن تلك الليلة الممطرة. نعم كان هذا منذ سنوات. المنزل الكبير بأبوابه ونوافذه الزجاجية التي بللتها مياه الأمطار يقف في وجه الريح والعاصفة .

الأهل والأحباب مجتمعون حول مائدة الطعام، يتبادلون الأحاديث والضحكات التي اختلطت مع صوت الرعد والمطر. فجأة أظلمت الدنيا من حولي ، وخيم سكون مطبق... يا إلهي ما الذي حصل، لقد قطع التيارالكهربائي .. أين الشموع .. في المطبخ .. كيف سنذهب لإحضارها في هذا الظلام. ارتفعت الأصوات وتعالت الهمسات ، وذهب من يحضر الشموع، فعاد بها وأشعلها ووضعها على المنضدة، لن أنسى ذلك المنظر، شموع يتراقص لهيبها كأنه طرب لصوت المطر، ونورها الخافت ينعكس على الوجوه فيضيء طرفاً منها ويترك الظلال تتحرك على طرفها الآخر بشكل أخافني إلى حدّ ما. ولكنها مغامرة .. لقد أسعد الجميع قضاء ليلة على ضوء الشموع، ولكن النوم سلطان كما يقال، بدأت الصور تهتز أمامي، الخيالات تذهب ثم تعود لتختفي من جديد أمام عيني المغمضتين.

نبّهني انقطاع صوت المطر، فعدت إلى أرض الواقع، فتحت النافذة وداعب النسيم العذب المشبع برائحة المطر وجنتي الدافئتين. هذه الرائحة كم أحبها .. رائحة الأرض التي ارتوت والنجوم التي اغتسلت فتلألأت .. بماذا ذكرتني .. بذكرى ليست محببة إلى نفسي، عادت إليّ تفاصيل تلك الليلة الرهيبة. نحن في تركيا في إجازة الصيف، عمري لا يتجاوز الخمس سنوات. أمي تتأهب للخروج، وتوصيني ألا أترك يدها وأن لا أبتعد عن المجموعة فالعدد كبير وهي تخشى عليّ الضياع. وافقتها على كل ذلك وخرجت من الفندق سعيدة .. فالهواء منعش والليلة كما سمعت من ليالي رمضان الأخيرة إلى أين سنذهب؟! الصغار إلى الحديقة، والكبار إلى المسجد المحاذي لها.

أذكر تلك الحديقة المعتمة التي يصل إليها نور خافت من مصابيح الشارع. أما المسجد فالمقبرة التي تحيط به تكفي لتجعلني بعيدة عنه لا أقترب منه. كان الزحام شديداً على ما أذكر، ولكنه ازداد عندما تجمّع الناس أمام باب المسجد .. سألت لماذا هذا التجمع؟ فقيل لي: بمناسبة ليلة القدر الفضيلة، فإنهم يوزعون الماء المثلج بالمجّان. شعرت بالعطش الشديد فتوجهت نحو الماء متّبعة بعض أفراد عائلتي، اخترقت جموع الناس بصعوبة ومشقة حتى وصلت إلى هدفي، ولكن من شدة الزحام لم أر من أهلي سوى ابن عمي «باسم»، فقلت له، «أريد أن أشرب» أعطاني زجاجة ماء وقال: «اشربيها الآن حتى نرجع الزجاجة إلى أصحابها ونعود للحديقة» فأجبته: «حسناً. ولكن انتظرني ولا تذهب بدوني».. أخذت منه الزجاجة، ووجدت صعوبة في فتحها .. وأخيراً فتحتها .. الماء بارد ولذيذ ...

رفعت رأسي الصغير لأجد رؤوساً غريبة تحيط بي.. أين باسم!!؟ تلفت يمنة ويسرة.. تأملت الوجوه بحثاً عن وجه «باسم».. «باسم أين أنت!؟». دفعتني الجموع بعيداً عن المكان ... كلا لقد ذهب بدوني .. لقد نسيني .. نسيني أهلي بالتأكيد .. لم أفكر وأنا في تلك السن الصغيرة أن ذلك مستحيل .. ولكن أين ذهب الجميع؟! تزاحمت الأسئلة في رأسي، أين هم الآن؟! هل عادوا إلى الفندق؟! أم ذهبوا إلى مكان آخر؟!

أحسست ببرودة الدمع تلسع وجنتي الملتهبتين وارتفع صوت نحيبي: «أريد أمي، أين أمي؟!». تجمهر الناس حولي، رأيت وجوهاً تنظر إليّ بفضول. اقتربت مني مجموعة من النساء يرتدين ثياباً بيضاً .. قالوا: «ماذا بك؟ وما اسمك؟ ». فهمت سؤالهم، فأنا أعرف بضع كلمات تركية.. ولكني صرخت بلغتهم: «.. أمي .. أمي.. أريد أمي..» سألوني: «أين هي؟!» ولكن الخوف عقد لساني فأنا لا أعرف أين هي.. هل أنا حقاً تائهة؟!..

صاحت إحدى السيدات: «من يتكلم